

فارس مازوم ...
مه "مدينة لقطرة"

المجيب

بقلم أنور قصيباتي

عبدالسلام المجيلي ، عاني - في ظني - هذه المحنة عقب انكسار الهزيمة العربية في الايام الستة من حزيران ، وهو ككل اديب مبدع بدأ عقب الانكسار بعد ان جتمع شتات نفسه يتحدث عن هذا الانكسار حديثا عفويا صادقا . وهو كقاص موهوب كان لا بد من ان يأتي هذا الحديث بشكل قصة او رواية . ان القلة النادرة من امثال المجيلي في الوطن العربي حاولت ما حاوله . بعضهم قد تسامح قليلا وغض الطرف عن زيفه وقال جملا وفقرات لا يؤمن بها ، وبعضهم الآخر قد رمز والغز فلم يفهم هو ما يريد ولا الآخرون فهموا عليه .. هؤلاء قد استطاعوا ان يتصلوا بقرائهم لكي يشعروا فيروسيته امامهم .. او على الأقل لكي يبرهنوا على نسمة الحياة التي تحرك القلم بأيديهم .

.. اما الصنف الاخير فهم هؤلاء الذين لا يبالون بشيء على الإطلاق ، ورغم رؤيتهم للسد يتجاهلونه ورغم علمهم بان آثارهم لن تنشر ابدا لا في هذه المدينة ولا في تلك فانهم يكتبون ويعبرون ويؤلفون .. ليس الاشعار والقصص فقط .. بل يؤلفون الروايات التي هي وحدها تحمل الصلاحية للتعبير عن حدث مثل حدث هزيمة حزيران .

هؤلاء يتشوقون - ككل اديب مبدع - ان يصبوا اعماقهم في اعماق وجدانات قرائهم .. ومع ذلك فهم يكتبون باندفاع وحماس لكي يفرغوا الشحنة النفسية الحارقة التي تلهب اعماقهم . فعملية النشر ليست مهمة بالنسبة اليهم كغاية اولى .. انما المهم ان يطلقوا هذه الشحنة اولا لكي لا تقتلهم وتودي بموهبتهم التي منحوها كاعلى عطية جادت بها الطبيعة عليهم .

عبدالسلام المجيلي .. كان واحدا من هؤلاء على اختلاف اصنافهم وتعقد طرقهم ، الا انه اخطأ طريقا مفردا فذا لم يدانه او يشاركه فيه احد من هؤلاء جميعا الذين هم بحق نخبة هذه الامة ، المعروف منهم والمجهول . ان سياقه الخاص الامين عليه ينفره من ان يقول ما لا يؤمن ، يزيّف بعض الحقائق في سبيل ان يطل على جماهير قرائه . وكذلك فان اسلوبه العفوي المباشر لا يمكن ان يتحول ، حتى ولو اراده ، الى اسلوب الانغاز والرموز والطلاسم ، واذا اراد ان ينشر رؤاه عن هزيمة حزيران .. فليس امامه سوى هذين الطريقتين ، التزييف او الطلاسم .. اما الطريق الثالث ، طريق الذين يكتبون ولا ينشرون لانهم لا يزيّفون ولا يلغزون فهو يتجنبه مجانبة كبرى لانه من الادباء الذين يشقون النشر والاتصال باكبر حشد ممكن من جماهير القراء . فالانثر الادبي عنده لا قيمة له الا بالتجسد في صفحة مطبوعة تس ذات الثبات والاولف . وهو اذا يعلم سلفا بان قصة ما او رواية

في فترات التحول الكبرى لامة من الامم ، يكون الادباء المبدعون هم الوجدان الحي لهذه الامة ، فهم من حيث تكوينهم النفسي والتعليمي والثقافي يرون ما لا يراه الآخرون ، ويعرفون ما يجهله غيرهم . وشغافية نفوسهم تجعل مشاعرهم كلوحة الرادار يرسم عليها اضعف خط يظهر في سماء الاحداث اليومية لسيرة امتهم . فالكارثة تضرب اعصابهم حتى حدود العصاب والانتصار يعضب دواخلهم كما لا يفعله اي نوع من انواع الفرح ، والامال تشنهم الى مستقبل وضاء يحويونه وكأنه الحاضر المعاش ، وهم وحدهم القادرون على الحس والتنبؤ .. حتى لكانهم النجوم والعراةون . ان كل ما حولهم يتسرب الى اعماقهم .. الوجوه والاحاديث والاعمال والمناظر .. المجتمع في طبيعة مرحلته بكل مظاهره .. التصرفات اليومية العادية الثقافية .. حتى لكان « الخارج » بكل ما فيه ينصب في اعماقهم .. وكان ذواتهم تمتد الى هذا الخارج وتمتصه بتمثل وامتلاء .. بحيث تمحى الحدود المادية والمنوية التي تقوم عادة بين الفرد والمجتمع اذ بين السذات والموضوع .. ويتشكل كل ذلك في وحدة حلوية تتأبى على التعريف .

ان الاديب المبدع لا يقدر ان يعبر الا بطريقة عفوية واضحة مباشرة ، لا يحتويها لغز او يجثم عليها تاويل . فكل ما هو صادق هو عفوي في نفس الوقت ، والتعبير العفوي هو غير نحت الصخور وارهال العقول .. انه يرد صافيا نقيًا كالوحي والينبوع .. ويفرج صافيا نقيًا كالوحي والينبوع .

ان فترات التحول الكبرى لامة من الامم .. الفترات التي يكون فيها الادباء المبدعون هم وجدان الامة ، هي نفسها الفترات التي تتصف بالرقابة الشديدة على الوجدان الحي للامة ، فينتصب سد اعلى من اسوان ومن الفرات يحجز خلفه التدفق الهادر لهذا الوجدان فيتحقق بذلك ما تنبئت به الاساطير عن تكبيل المارد والقائه في الجب المظلم .. الا ان السد لا يظل متماسكا كالغولاذ والاسمنت ، انما تتورده شقوق من هنا ومن هناك حيث تتسرب منه بعض الوصفات الالقة من حين لآخر .. لكن شتان بين شلال من نور يقضي وهو يعبر عن احلك الهزائم ويقضي وهو يعبر عن احلى الامل ، وبين ومضات خافتة ما تكاد تظهر حتى تطارد كما تطارد الفراشات بالشباك من قبل اللاهين المترفين . في هذه الحالة ليس امام الاديب المبدع - والاديب هو القاص والشاعر والمسرحي فقط - الا ان يعبر بالرموز والانغاز رغمًا عنه . يحطم اسلوبه ويضيف وجدانه ويمسح افكاره ويشوه عواطفه ويشوش رؤاه .. او يصمت . والصمت هو الموت .

يمكن ان يحال بينها وبين النشر فانه لا يقدم اصلا على كتابة حرف واحد منها ، فهو ينزع لان يكون حضوره دائما مستمرا هي ثوات قرائه ، ولا بد لتحقيق ذلك من الكتابة والنشر . فالكتابة فقط لوحدها لا تهمة من قريب او بعيد ، فليست هي سوى المعبر او القنطرة التي يتجه من خلالها نحو الآخرين ، فهو يكتب لكي يراه الآخرون .. الآن وفي الحين ولا يكتب لكي ينشر بعد سنوات وسنوات او بعد ان يرحل من الشهادة الى الغيب . فهو اذا لا يضع قشرة من الطلاء الظاهر المفتعل على الباطن الصادق ، ولا يكتب الفاظا تحمل دلالات تاويلية ظاهرها يخالف باطنها .. وكذلك فهو لن يكتب الا اذا عرف بانه سينشر ، فكيف اجتاز عبدالسلام هذه الورطة وتجاوز هذه الطرق الثلاث .. وكتب ما يريد ، ثم نشر ما كتبه بعنوان « فارس مدينة القنطرة » وانا لا اعني هنا مجموعة القصص التي ضمها الكتاب ، انما حديثي كله يدور حول القصة الاولى التي حملت عنوان الكتاب ، وموضوعها هو : هزيمة حزيران .

ان حوادث « فارس مدينة القنطرة » تدور في جنوبي الاندلس في الرقعة الصغيرة التي بقيت للعرب من ذلك الفردوس المهدور ، وهذا معناه ان عبدالسلام قد اختار الشخصيات التاريخية والاحداث التاريخية والبقاع التاريخية مسرحا لافكاره وتجسيد رؤاه ، وهذا معناه الكتابة بأسلوب رمزي ، وقد ذكرت بانه من الادباء الذين لا يستعملون الرمز وانه لم يستعمل الرمز عندما اراد ان يتحدث عن انكسار الهزيمة العربية في حزيران .

بعض الادباء اتخذوا الاطار التاريخي وسيلة للتعبير ابسان تصويرهم للهزيمة ، او لمجتمع الهزيمة ، وقد قرأت مؤخرا مسرحية تصور مجتمع الهزيمة ضمن اطار تاريخي (1) .. الا انني لم اتمثل البيئة التاريخية على الاطلاق ، فكنت اغفل الاشخاص فقط يرتدون الملابس التاريخية اما حوارهم فكان يحمل الهموم السياسية اليومية التي نعيشها في كل مدينة عربية ، ولم اجد اي ارتباط بين الاحداث التاريخية موضوع المسرحية وبين الاحداث التي تصرعنا صبح مساء . فالحدث التاريخي كان ميتا بالمره ، اما الحدث الحي فكان الحدث المعاصر ، مع العلم بان المؤلف اختار فترة الهزال العباسي ، عندما كان الخصيان والعبيد والماليك يقيضون ، بقوة السلاح ، على خناق الامة . ويحولون كسل ثراء في الارض والانسان الى جند وقحط ونضوب . اما عبدالسلام فعندما اختار الاطار التاريخي ، فانه تحدث منه كتاريخ تماما . لقد تمثلت الارض الاندلسية الضيقة ، والشخصيات الاندلسية التي تصارع الهزيمة ، وكنت ارى الاحداث الاندلسية لا وقائع حرب حزيران ، والهزيمة تسحق بقايا عرب الاندلس لا جموع عرب اليوم . ومع ذلك فهذه القصة هي ابعد ما تكون عن كونها جزءا من تاريخ ، او قصة تاريخية .. وهنا يبدو التفوق عند صانعها .

ان صدمة هزيمة حزيران عند ممثلي الوجدان الحي لامة فعلت بهم كل ما يخطر ببال ، وردت البعض الى الهروب من واقع وبيئة لم يعد بالامكان عيشهما .. الى واقع وبيئة من الممكن الحياة فيهما . وهذا الهروب هو هروب خيالي تصوري وليس هروبا جسيما حركيا . البعض هرب الى فيتنام او الصين او شارك في عصابات شعوب اميركا اللاتينية . والبعض الآخر هرب الى التاريخ العربي . والهروب قد يكون سلبيا وقد يكون ايجابيا ، فعند تمثل واجترار فترة الفترات العربية او فترة الحروب الصليبية في عهد صلاح الدين ، يكون الهروب سلبيا .. اما عندما يكون الهروب الى فترات الضعف والهسزال والكوارث التي عانت منها هذه الامة الشيء الكثير .. فان الهروب هنا يكون ايجابيا . واذا كان عبدالسلام قد اختار اواخر فترة انحسار العرب عن اسبانيا .. فمعنى ذلك انه قد هرب لهنالك ، وان

هروبه ايجابي للتشابه البديهي بين هزائم العرب في اسبانيا وبين هزيمتهم في حزيران .. الا ان سياق قصته لا يدل على ذلك . كما سنرى من خلال تحليلها .

ان القربة الروحية قربة الشبه من الهروب .. الا ان القربة روحيا الى بلاد اخرى او الى حضارة اخرى وتمثل ادبها وتاريخها وتقاليدها وقيمها تتوخى الصحة النفسية ، عندما تبدأ الذات بالشحوب والنضوب بفعل مزاجي بيولوجي .. او بفعل بيئي اجتماعي .. والذات المستغربة انما تتوخى الفرح والازدهار .. وتسعى وراء الصور والالوان والجمال والرؤى .. وهذه الامور كلها تحققها البيئة الاندلسية تمام التحقيق .. فهل يمكننا القول بان عبدالسلام وقد احاقت به ظلمات الهزيمة ، كما احاقت بكل نفس عربية واعية ، قد اراد التخلص من موجات الظلمة المتعاقبة لكي يستنشق الهواء والنور من الهضاب والسهول الاندلسية البهية الالوان ؟! قد يكون ذلك صحيحا لو ان قصة « فارس مدينة القنطرة » .. كانت حكاية تقص اخبار فتاة اندلسية جميلة متيم بها فارس او شاعر في جو مرهف انيق ضمن الاطار البديع للطبيعة الاندلسية الرائعة . فكاتب القصة اذا لم يهرب الى مجتمعات معاصرة .. ولا الى فترات تاريخية محددة من عمر امته .. وكذلك لم يقوم بعملية استغراب روحي الى انماط حضارية تتفاوت مكانا وزمانا وكما وكيفا ، تفجر ينابيع الخصب والطاء وتعطي الالق والنشوة والحدرد اللذيد .

اذا كيف يمكننا تفسير ظاهرة ابداع هذه القصة ؟!

ان المريض النفسي المصاب « بعصاب الصدمة » يدفعه مرضه من اعمال الاشعور لكي يستعيد تجربة العادة التي سببت له الصدمة واورثته هذا المرض .. فيأخذ بعيشها مرة تلو اخرى ، ويكررها في احلام النوم حيث يهب مذعورا صائحا في البرهة التي يقترب فيها من جزئية الحدث الذي سبب الصدمة . والتحليل النفسي يرجع السبب في ذلك الى ان المريض في تكراره لتجربة الصدمة .. يريد عندما يصل الى النقطة المباشرة للصدمة ان يتجنبها وينجو منها .. لكن بطبيعة الحال فان تكرار العادة في احلام النوم لا تفسح المجال للمريض لكي يعدل من موقفه ويتجنب صدمة قد حدثت بالفعل وحدثت في منظمته النفسية صدماء ليس له راب .. وامكانية الشفاء لمثل هذا المريض تتم عندما يتعرض لعادة حقيقية تكون مشابهة للعادة الاولى التي سببت له العصاب الاليم !! .. ومن جهة اخرى فان حدوث القلق قبل التعرض للصدمة ينجي من الاصابة بالعصاب ، اي ان توقع الصدمة وترقبها والتوتر الذي يصاحب حالة التوقع يجعل وقع الصدمة خفيفا غير مؤذ . والمريض عندما يمد تمثيل وقائع الصدمة في احلامه فانه يستهدف ايجاد حالة من القلق والتوقع والتأهب النفسي .. تلك الحالة التي لم تكن موجودة ابان وقوع الصدمة الفعلي التي سببت العصاب الاليم ، فكان المريض يريد ان يصود الى زمن ما قبل الصدمة لكي يتجنبها وينجو من عذاب آثارها .

ان العمليات الانفة المتعلقة بألية عصاب الصدمة هي التي تعطينا مفتاح التفسير لفارس مدينة القنطرة . فالكاتب ، كمثل انسان عربي حقيقي عاش تجربة الايام الستة من حزيران بكل فقراته النفسية والعقلية والروحية ، وحالة القلق والترقب كانت معدومة تماما في الايام التي سبقت هزيمة حزيران ، واذا كان ثمة ترقب فهو عكس المقصود ، لانه كان ترقب الانتصار والفخار الذي يزيل من امام النفس جميع الواقع الدفاعية التي تقف في وجه الصدمة عندما تحدث . وفي هذه الحالة تقف النفس شغافة عريانة وقد تجردت من درعها الواقعي بحيث تكفي اقل هزة لكي تغرقها وتجعل الشقوق تمتردها .. فكيف يكون الامر اذا كانت هذه الهزة في مستوى هزيمة حزيران الماحقة .

ان هزيمة حزيران تحمل كل الشروط والصفات العلمية لدرجة

المثل الآلية الصدمة .. وكذلك انسانها يحمل كل الشروط والصفات العلمية لآلية عصابها .. وكاتب قصتنا هو شخص مصاب بعصاب الصدمة . ويجب ان لا ننسى بان هذا العصاب له صلات وثيقة بالحروب وان اكتشافه المبني كان في وسط المحاربين العائدين من جبهات القتال ، وان اخر حلقاته تتصل بفرصة الموت .

وهذا العصاب يشتد عند الذين يعيشون الهزيمة وهم في بعد عن القتال ، اكثر مما يشتد عند الذين يجابهونها في جبهات القتال ، كما هو الشأن عند الفالية العظمى من العرب الحقيقيين ابان حرب حزيران ، لان الذي يعايش الهزيمة ولا ارادة له في صنعها او محاولة درئها ، فليس امامه سوى طاقاته النفسية يحرقها لدرجة التلف .

ان كاتبنا لم يشهد وقائع حرب حزيران على الجبهات العربية ، انما عاشها بكل طاقاته . وكانت الهزيمة صدمة خلفت عنده - كما عند غيره - عصابها الاليم . وطالما انه لم يشهدا شهودا ماديا حسيا فهو لا يمكن ان يخضع لآليتها التقليدية ويبعد تمثيل الحادثة بالعلم . ان شهودها النفسي الفكري قد دفعه لان يعيد تمثيل الحادثة تمثيلا نفسيا فكريا .. فكانت فارس مدينة القنطرة ، هي ثمرة غير مباشرة لآلية عصاب الصدمة . فقصة فارس مدينة القنطرة تؤدي نفس الوظيفة التي يؤديها الحلم الجزع في ظلمات النوم والليل والارض والاعمق بالنسبة للمريض المذب .

فنحن هنا مع القصة امام تكرار لحرب حزيران ، لحادثة الهزيمة ، لاسباب عصاب الصدمة . والكاتب انما يعيد صياغة الحادثة كلها ، يعيد تمثيل الحرب من ارهاصاتها الاولى الى يومها الاخير . والهدف الاساسي عند الكاتب ، في اعادة تمثيل الحادثة ، هو هدف نفسي شخصي مباشر وغير شعوري ، وهو خلق حالة من القلق والتوتر والترقب .. في محاولة لدرء الصدمة .. وبالتالي بناء درع واحد يلف النفس ويحول بينها وبين المثيرات الحادة للصدمة من ان تتسرب الى اعماق النفس وتشتتها . اي محاولة للشفاء من آثار صدمة الهزيمة . فكيف تأتي للعجيلي ان ينصب المسرح الكامل المهيء لحرب حزيران وان يعيد في نفس الوقت مسرحية الهزيمة من بدايتها حتى يومها الاخير ، في بضع عشرة صفحة فقط ؟! في الرد على هذا السؤال يجب ان نضع نصب اعيننا بان الكاتب لم يكتب قصته الا بدافع من مرضه النفسي ، مرض عصاب الصدمة ، وان اللاشعور الدفين هو الذي تجلى من خلال احداث القصة ، وليس الوعي الارادي الذي يجسد ما يتصوره .

يبدأ العجيلي قصته بخبر شخصي لا يهم غيره فيقول « في عام ١٩٥٤ نشرت لي دار المعارف بمصر كتابي حكايات من الرحلات » ففي هذه الفقرة الصغيرة ضمن اربع حقائق لا يرقى اليها الشك ، اولا كتابه المعروف « حكايات من الرحلات » ثانيا العام الذي نشر به ، ثالثا البلد الذي طبع فيه ، رابعا دار النشر التي اصدرته . فهو منذ الوهلة الاولى يريد ان يقنع القارئ بان كل ما سيقوله هو حقيقي وواقعي وصحيح ، وانه قد حدث بالفعل ، وان الاحداث والاشخاص لا يمكن ان يرقى اي شك حول وجودهم .. وهو بذلك يريد ان يؤكد بان الاحكام التي ستصير من خلال الحوار والشخصيات والاحداث .. هي احكام صادقة ونهائية . وفي هذا الكتاب الذي نشر عام ١٩٥٤ يورد قصة عائلة اسبانية تعرف عليها في القطار ، وتبادل مع افرادها الطعام والهدايا . وبعده رب العائلة ان يرسل له مجلدا قديما عثر عليه في احد صناديق البيت المهمة لطالما انه ينتمي للغة التي كتب فيها هذا المجلد . وبعد بضع سنوات يعهد بهذه المخطوطة التي لم يستطع فك حروفها المغربية الى صديقه المختص في علم المخطوطات .. وتمر سنوات اخرى قبل ان يرسل له صديقه العالم المخطوطة وقد كتبت بخط واضح مقروء . وهنا يتمكن

كاتبنا من قراءة المخطوطة ويحدثنا عن فحواها . فهي مليئة بالاحداث التاريخية التي رويت بأسلوب قصصي عفوي كما حدثت تماما . ويختار الكاتب قصة من هذه القصص ويعرضها علينا بعد ان يشذب ما نقرأ منها لكي تتلام مع ادوافنا الماصرة التي تفصلها عن ذوق راويها الاول ثمانية قرون . وقد أعطى اسم « فارس مدينة القنطرة » لهذه القصة التي لم يعرف شيئا عن راويها سوى اسمه ، النعمان ابو وائل ، الذي تبدت شخصيته من خلال مخطوطته على انه فارس محارب وشاعر من هؤلاء النادرين الذين يظهرون عادة في اعقاب سقوط الحضارات وانهيار الدول ، مجردين كل ما يملكون من مواهب وشهامة وشجاعة في محاولة فاشلة لوقف السقوط والتدهور . وهذا الفارس المحارب ينتهي الى مدينة القنطرة . ويحكي لنا العجيلي بانه سال اساتذة التاريخ الاندلسي عن موقع هذه المدينة ، فاخبروه بان الاندلس كانت تحوي عددا من المدن والقرى كلها تحمل اسم مدينة القنطرة ، وان اشهرها تلك التي تقع على نهر التاج قرب الحدود البرتغالية والتي لم تزل تتألق الى اليوم على سطح كل خارطة لشبه الجزيرة الاندلسية ، الا ان سياق الحكاية في المخطوطة يدل على ان المدينة المقصودة تقع في جنوبي الاندلس ، لان احداثها ، كما يرويها النعمان ابو وائل وكما دل اجتهاد المؤلف قد حدثت « بعد سقوط اشبيلية وغرناطة وتراجع العرب الى مناطق الساحل الجنوبي تراجعا مؤذنا بضياع ذلك الفردوس من ايديهم » . لقد روى النعمان ابو وائل قصته بشكل يوميات . فكان يؤرخ اليوم ويكتب احداثه الا انه سهى عن ذكر السنة وهو يبدأ كما يلي :

« خمسة عشر خلت من صفر وهو يوم اربعاء » .

وفيه لقينا ابن مرداد ابو بكر واخبرنا انه قادم الساعة من بنسية وانه رأى عساكر تودر تجمع جموعها وتحتشد بيارقها قال المهلهل لا حول ولا قوة الا بالله ابن ساعر الفاسق في الجزيرة وتوذر يجتس على المسلمين قال ابو بكر وما يقدرك عن الجهاد في سبيل الله يا ابن ساعر هل يحول بفضك لابن ساعر دون ان تحمل سيفك وتركب فرسك وتذب عن دينك ودارك فالتفت الي المهلهل وقال يانعمان ان ابن ساعر فاسق لا يصح له جهاد لو اخلص النية فكيف وانا على مثل اليقين من انه لا يخلص النية بل يريد ان يذبنا لتخلص له البلد .. » .

من خلال هذا المقطع نجد بان العجيلي قد حافظ على اسلوب الراوي وابقى الفاظه كما وردت في المخطوطة حتى انه لم يشأ ان يتدخل ويضع الفواصل والنقاط ، فجاء الحديث متصلا ضمن سياق واحد وكأنه كله عبارة عن جملة واحدة ، ونحن نعرف بان محققى التراث الذين يهينون المخطوطات للطبع يهتمون اهتماما شديدا بالفواصل والنقاط ، وقد اهمل عبدالسلام هذه النقطة تأكيداً منه على صحة الاحداث وتطرفا في المحافظة على روح النص ، ويخيل اليانا بان النص المحقق قد وصله من صديقه عالم المخطوطات موضحا بالنقاط والفواصل والعلامات .. الا انه اثر الفاء ذلك محافظة منه على الامانة التامة .

ومن هذا المقطع بالذات نستطيع ان نمسك بالخيط الرئيسي للقصة ونتتبع باحداثها ونستشرف سياقها الخاص . فهذا الفارس الشاعر النعمان ابو وائل مدون هذه الذكريات ، يسمع وهو بصحبة اميره وصديقه المهلهل ابن سلام بان الاسبان يحشدون قواتهم لمنازلة المسلمين ، بينما ابن ساعر يرتاح في الجزيرة ولا يحسرك سائنا ، وكان اصداق المهلهل يفهمون بانه هو الآخر قاعد عن الجهاد بسبب بغضه الشديد لابن ساعر . وكيف لا يبغضه وهو

على حد تمبيره فاسق وخائن يتنى ان يذبحوا جميعا بيد العدو ليصبح السيد الاوحد للبلد ولو تحت حماية ونفوذ الاعداء .

فنحن هنا امام ثلاث شخصيات ، شاعرنا البطل النعمان ابو وائل ، والمهلهل ابن سلام الامير العربي الفيود على دينه وقومه ووطنه ، وابن ساعر الفاسق المتهم بمائلة الاعداء والقصود دون حريهم مع انه يملك القدرة على ذلك .

فمن هو ابن ساعر ؟!

الملاحظة الاولى ان الاسم غريب يتنافر مع الاسماء العربية الاندلسية المعروفة ، فهو زعيم لجماعة تطفو على السطح عادة ابان فترات انحلال الحضارات وسقوط الدول وتلعب دورها المين في هذا السبيل . وهذا الزعيم يملك الحشود والجنود . وجنوده هم من زنجالة الجبل ، وواضح ان زنجالة الجبل هم فئة او عشيرة من الفئات التي يتشكل منها الشعب الاندلسي ، قد يكونون من البربر وقد يكونون من متسلمة الاسبان ، وان هذه الفئة استطاعت ، في هذه الرحلة ان تصل الى مركز القوة والنفوذ . والمهلهل يقول عنهم « انهم مبيد بطونهم من ملاها ركضوا وراة ولا احسب تودر الا عرفهم فواعسد رؤساعهم الواميد » وانهم « ابن ساعر هو وجنده يفسقون ويرمون الناس بالفسوق كانه لا يدري ان تلك التي كنت اتمشقاها اصبحت زوجة لواحد من اكابر قواده وموضع سره ، انها سيبيلية كانت قينة قينة في رياض شليل وهي اليوم زوجة ابن عمرون قلت وان ابن عمرون مضري قال وانه مضري ولكنه صنيعة لابن ساعر امره على كتاب من زنجالة يحسب نفسه اميرها وهو اسيرها قلت هؤلاء الزرق العيون الحمر الوجوه من زنجالة كانهم وجند تودر من طينة واحدة قال لملك لم تصد الحق » .

ان ابن ساعر وجنده يفسقون ويرمون غيرهم بالفسوق ، ويميلون الى مائلة الاعداء ويتهمون غيرهم بالقعود عن القتال . فهم من النوع الذي يقول ضد ما يفعل . انهم يدعون الوطنية والشجاعة وسحق الاعداء ، بينما جميع تصرفاتهم تدل على عكس ما يقولون ويذيعون . وهذا يذكر بقول اوسكار وايلد « ان الجبان لا يتحدث الا عن الشجاعة والعاهرة لا تتحدث الا عن الشرف » فاحد كبار قواده وموضع سر اميرهم قد تزوج من امرأة هي في الاصل عشيقة للمهلهل ايام طيش الشبان . وهذا القائد مضري اصيل من ناحية الدم وفي حقيقته عبارة عن العوبة بيد زنجالة الجبل قد آثروا على قواتهم وهو اسير في ايديهم ، ان شاؤوا سجنوه ، وان رغبوا طرده ، ومتى ارادوا اقالته فعلوا .

هذه هي المقدمات التي يدونها كاتب المذكرات ويضمها تحت امين كل ذي بصيرة حادة لكي يكون بإمكانه ان يتنبأ بنتائجها . فهذه الفئة المتسلطة المعزولة عن الاكثرية هي التي ستجر الهزيمة على البلاد . وستجعل من جنود الاسبان سيلا هادرا يدفع ببقايا عرب الاندلس الى البر الافريقي .

لقد بدا الكاتب يمارس آلية عصاب الصدمة ، وتندفع رؤاه بضغط اللاشعور لتصنع احداث الهزيمة وتستعيد الوقائع بشكل مشوش اشبه بالحلم ، فنحن هنا امام الارهاصات الاولى للهزيمة وامام المناخ العام الذي ستنبت في اجوائه ، ان القصة من بدايتها حتى النهاية مجموعة رؤى غير متناسقة ، ومجموعة احداث غامضة ، لا يوجد خط يشدها او رابطة واضحة ترقى بها الى المستوى الفني الكلاسيكي للقصة كما يؤمن بها راويها . وكذلك الحلم ، حلم عصاب الصدمة ، يكون مجموعة من الاحداث والرؤى المنفصلة عن بعضها ، والتي تقود فيما بعد الى اللحظة المربعة التي سببت العصاب الأول ، لحظة الهزيمة والانكسار . ومن ثم الرض النفسي المصفي على الشفاء . وتتابع احداث الحلم لتقفز الى الحرب دفعة واحدة منذ البداية وكان المؤلف يستعجل هذه الحادثة قبل اوانها

في محاولة لبناء درع معنوي من الخدر والتوفعات يحميه من الكارثة التي لوت اعصابه وخرشت منظمته النفسية الشمورية .. عليه ينجو في الحلم - الكتابة - من الصدمة ، وبالتالي من مضاعفاتها المرضية الحادة .

من المفروض لدى كاتب يؤمن بالسياق التقليدي المتين للقصة ان يسهب في رسم الجبو الذي سبب وسبق الهزيمة ، وفي اعطاء المقدمات الوافية التي يمكن من خلالها التنبؤ بالنتائج .. الا ان المؤلف المح الى ذلك ثم اجتازة دفعة واحدة ليصل بنا الى الجبهة فجأة ويرسم لنا استراتيجية الحرب كما يراها من خلال حلمه المصابي . فنجد « ان كل سائر ابن ساعر تحشدت في مضيق بنسية وتركزت السهل يمكن لمقاتلة تودر ان تندفع فيه » وبعد ذلك مباشرة يضيف المؤلف عنصرا جديدا لعملية حشد الجيوش ضد العدو الاسباني . فالسهل الذي ترك بلا حماية يندفع المهلهل وجنوده من المضربة ليكونوا حاميتها « ما دام ابن ساعر لم يبعث الينا يستيننا كانه مستفتن بجنده من زنجالة الجبل هنا نحن ابناء الجزيرة من المضربين » وهنا نجد ان المؤلف يحافظ على آلية عصاب الصدمة ويعمل من سياق الحرب عندما يستعيدنا كحلم ويدفع بالمضربة لعصابة السهل لكي يقفوا في وجه الاسبان ويردوهم على اعقابهم .. ولكي لا تحدث الهزيمة .. وبالتالي لكي ينجو المؤلف من عصابها الملون ، ولكي يدغم جبهته - جهة حلمه - استمدى لحماية السهل « من لم يدعه ابن ساعر الى الجهاد من المضربة فانضم الينا خيالة ورجاله كثر واملا السهل خياما وعدة وبهذا يكون المؤلف قد نصب درعا متينا واقيا يستطيع ان يقف وراة بكل هدوء واطمئنان محتما من الهزيمة ومن آثارها ومضاعفاتها .

وفي تكراره لعملية الحلم يحاول المؤلف ان ينصب سلسلة من الدروع الوافية لكي يكون بإمكانها القيام بوظيفتها الدفاعية بحيث لا تتمكن اية قوة مهما بلغ سلطانها ان تغرقنا وتندفع من خلالها . فمن هذه الدروع رغبته في ان يكون اهل البلاد كلهم جيشا واحدا يرد هجمة الاعداء . وهم في هذه الحالة يكونون درعا متينا لا يقدر العدو على اختراقه وكسره والتسرب منه الى البلاد والنفوس والاعصاب « اما كان احري بابن ساعر ان تكونوا جنده وانتم منه وهو منكم » الا ان هذه الدروع التي يقيمها المؤلف سريعا ما تتداعى الواحد تلو الآخر « فابن ساعر ما هو الا عدو لنود لهذه الامة قد جانب اوليائها وقرب اعداها انظر اترى في جيشه قائدا مضريا غير ابن عمرون وبعض المهازيل ممن لم تكن انفسهم تسمو بهم الى اكثر من تثقيب رماح الفرسان وبيطرة خيولهم » .

والألف عندما يصود محطما بعض الدروع الوافية التي اقامها فانه لا يفعل ذلك لاجل تقريب الهزيمة ، انما على الضبط يفعل ذلك لكي يبعثها ، مندفعا بذلك من حماسة العصابية التي تجبره على تمثين الدروع القادرة على درء الهزيمة وعلى حمايته من مرضها العصبي . فالدروع التي يهوي بها هي دروع ابن ساعر وقائده المزال ابن عمرون لانها دروع واهية تنهادر تحت اخف الضربات ، وتسرع في جلب الهزيمة . فهو اذا يزعمنا من امامه لحمايته وحماية منظمته النفسية وحماية اعصابه لكي يقيم موقعا عنها دروعا حقيقية ولو في عالم الحلم والفكر ، وذلك عندما يقول « ان صناديد المضربة آلت ان لا تترك اسبانيا واحدا يخطو على ارض الجزيرة » فهذا العزم الذي ليس له وجود الا في اعماق الحلم هو القادر وحده على الوقوف في وجه الاسبان واحتفاظ بالسهل والمرتفعات وكل جنوبي الاندلس ، وواضح ان هذا العزم هو الامنية التي تراود مرضى عصاب الصدمة ولسان حالهم يقول : لو حدث ذلك ، لو تحقق هذا لما كانت الصدمة ولما وجد عصابها . والحلم المصابي كله يدور عادة حول هذه الامنية في محاولة فاشلة لاقرارها واقفا .

فجأة نجد ان القتال قد استمر والاسبان قد اجتازوا المخاضة بعد اطلاق هذا العزم مباشرة ، وبعد اقامة هذه السلسلة المتعاقبة من المواقع الدفاعية التي يستحيل اختراقها . وهذه المرحلة من مراحل الحلم المصابي هي التي تهب الراحة الموقته للمريض حيث يعيش عدة لحظات آمنة مطمئنا وكان مرضه قد زال عنه نهائيا .

فبمجرد تصور المؤلف لارادة القتال وقد انتصبت شامخة كالغولاد واللهب يطلق المعركة من عقالها ، وانقا من النصر الاكيد .. ويجعل الاسبان يهاجمون العرب ويجتازون المخاضة .. الا ان العرب يحملون عليهم حملة صادقة ويردونهم على اعقابهم كما هو متوقع تماما ، وكما يعلم المؤلف .. بحيث « كانت المصيبة كالطيور البواشق لا تقارب فارسا الا وتخطف روحه من بين جنبيه ولم ار في من رايت مثل الملهل ضرابا بالسيف وقدفا بنفسه في مشتجر الراح » .

الى هنا نجد ان المؤلف قد استوفى غايته تماما ، اقام دروعا واقية متينة ، وهدم الدروع الصورية ، واوجد ارادة القتال ، ثم اطلق المعركة . اي انه اوجد الشروط المناسبة لتفادي الإصابة بمرض عصاب الصدمة . فهو مهين ونفسيا للقتال ، وهو واقف خلف دروع حصينة لا يمكن اختراقها وهو مسلح بعزيمة الجهاد الفطري التلقائي .. وفي هذه الحالة لا بد ، بداهة ، من ان يكتسب النصر . ونجد ان النصر يكتسب فعلا ، ليس على يد ابن ساعر وقائده المهزال ابن عمرون وجنودهما من زنجالة الجبل ، انما يؤخذ النصر بواسطة الملهل ورجاله من المصيبة الاشواس .

وكما ان للهزيمة عصابها وانهيائها ، فان للنصر نشوته وشموخه .. ونشوة هذا النصر تعود في خواطر ووجدان الملهل بن سلام امير المصيبة وتجري على لسانه بايات من الشعر يهتز لها قلب المؤلف الولهان بالنصر البعيد :

ولو ابصرت عينك يوم تذامرت

فوارسهم والخيال بالهام تشر

وقد اقبلت صهب الثمانين فسوة

كسيل على درب النيسة يهسر

نبت لهم نفسي زمهري وصارما

به من فراق الدراعين تدمر

اصولهم فوق المخاضة مثلما ..

تولب في غيل الاسود غضنفر

فالؤلف لم يكتف بنصر عابر يحرزها العرب ، انما اراده نصرا حاسما للوهلة الاولى من النوع الذي يلهب النشوة في الاعماق ويجعل الشعر يجري هادرا غنيفا كسيل البراكين .. على الرغم من ان الشعر الاندلسي بعيد عادة عن مثل هذه الصفات . وفي هذه الحالة تتحول الهزيمة الى نصر واللامبالاة الى عزيمة ، والضعف الى ارادة ، والمصاب الى نشوة . ففي سلسلة المراحل التي يجتازها المؤلف ابان استعادته لتجربة الهزيمة وهو في اعماق الحلم يصل الى النصر ، ويزيل الصدمة موقتا او يتفادها على الاقل .. وهذا ما يهدف اليه كل مصاب بعصاب الصدمة ابان عملية التكرار للحادثة في الحلم . ويضيف المؤلف مرحلة جديدة الى مراحل ، غير معروفة في آلية عصاب الصدمة ، عندما يجتاز تجنب الهزيمة وتجنب الصدمة الى النصر نفسه ويكتسب منه النشوة المنظمة الهادئة والتي هي على النقيض من العصاب الذي يورث الانهيار العصبي والغور النفسي ، وهو هنا يريد ، ابان حلمه ان يتعد اكثر واكثر عن الصدمة وعصابها عندها يقلب الوضع راسا على عقب ، ويجعل منه نصرا يفجر النشوة ويهب الصحة والهناء . وهذا ان دل على شيء فعلى مدى الإصابة العميقة التي نزلت بالمؤلف وهو يشهد انكسار الهزيمة العربية ويتكرر معها .

فمن هنا نكاد نلمس التصال العنيف الذي يكابده المؤلف في سبيل اجتياز لحظة الهزيمة التي كسرت اعصابه واعصاب النخبة الواعية في الوطن العربي لكسي يطل من فوقها على النصر واقفا على ركامها وهو يحق بانتشاء بتراجع الاسبان وسيوف فرسان المصيبة تقلقل جامجهم .. ولكنه سريعا ما يتهاوى ويقع مرتطميا بارضية الهزيمة . اذ ما يكاد الملهل امير المصيبة ينتهي من انشاد الايات المشحونة فخارا ونشوة حتى يحدنا كاتب المذكرات - ابو وانسل النعمان - بانه رأى « في دار الاموي صبيبة عرفت من لبوسهم انهم من صبيبة القنطرة فطفر الدمع الى عيني وبكيت والله رايت في الخيام نساء وصبيبة ورايت الخلاق الواردة ظفونا متلاحقة قادمة من ديارنا التي ذهبت من بين ايدينا هاربة من القتل ومن ذل اشد من القتل » والراوي كالألف لم يشهد سقوط القنطرة انما شاهد انارها فقط « بالخلاق الواردة ظفونا متلاحقة قادمة من ديارنا التي ذهبت من بين ايدينا هاربة من القتل ومن ذل اشد من القتل » وفي هذه الموقعة ، موقعة القنطرة يستشهد امير المصيبة الملهل بن سلام فارس مدينة القنطرة ويتسامل الراوي بما يشبه البكاء « كيف قضى الملهل فارس مدينة القنطرة الذي لا يشق له غبار كيف خرجنا من القنطرة وعليها انها امنع من عقاب الجو قلعة بين مضائق لا تسلك وحمانها فرسان مضر والكتاب المدينة من زنجالة » .

وفي هذه اللحظة بالذات ، لحظة الهزيمة المرة ، بعد محاولة اقامة كل الدروع الواقية التي لم تفقد بشيء يهب المؤلف مذعورا من حلمه وقد مس الهزيمة مسا مباشرا وانبتت بذلك العصاب من مرقده الخفي ورااد الدروع بعد ان تهافت جميعها ، فيكاد المؤلف ينوح وهو يصرخ « كيف قضى سيدي كيف قضى ابو بكر بن مرداد وقد عهدته بطلا لا تصمد الكتيبة لحملته ومحمد بن رباح وهو من هو سطوة على الاسبان حتى سموه شيطان العرب مما اوقع فيهم واغار على نفورهم والمهلهل بن سلام كيف قضى الملهل «(فارس مدينة القنطرة)» هذا النواح الظاهر يقابل تماما النواح الذي يصاحب مريض عصاب الصدمة ، وقد هب من نومه مذعورا بعد ان كرر في حلمه الحادثة التي سببت له العصاب الملعون . فالحلم عند المريض التقليدي بالمصاب وعند المؤلف ينتهي نهاية واحدة ، بالفزع والنواح وبفشل استعادة السيطرة للردم الصدمة .

ينتهي الحلم المصابي في هذه القصة بعد هذا النواح مباشرة . والنعر والنواح عادة في آلية حلم عصاب الصدمة هما الايدان للمريض بأن يكف عن حلمه ويطفو نحو الشعور واليقظة . فيهب من نومه مذعورا وهو يرتجف والعرق يتصبب من جبينه وقلبه يخفق خفقانا شديدا ، ويجلس في الفراش مستميذا وعيه شيئا وراء شيء محاولا ايجاد تبرير للصدمة التي حدثت وهو في يقظته بعد ان عجز عن الشفاء وهو في نومه . فهو لا يفك « ثابتا » . في نقطة الصدمة غير متزعزع عنها الى ان يتسم الشفاء او الزوال . فهو في حلمه يحاول استعادة السيطرة ، اما في يقظته فيحاول ايجاد المبررات التي توحى اليه بانه غير مسؤول عن اصابته بالمرض . وعلى هذا يتابع المؤلف قصته محاولا حشد اكبر كمية ممكنة من البراهين لتبرير حادثة الصدمة .. وبالتالي للتخفيف من مضاعفات عصابها المرضي .

ان صريع هذا العصاب ، يحاول دوما مع اتهامه الصارخ للظروف ان يضع اللوم على نفسه بشكل خفي ، وما تبريره لاحداث والظروف ، وهو في يقظته ، الا اعترافا ضمينا بانه يتحمل جانبيا كبيرا من المسؤولية التي خلقت وهيت جو العصاب . يصدق ذلك على الحالات الفردية وعلى الحالات العامة ، والمشكلة التي نحن في

العريضة او في الدين» .

٦ - ان الهزيمة كانت نتيجة منطقية للخلاف الذي دب بين افراد الامة الواحدة « وانظر ابن ساعر الذي وليتموه امرم بعد طول فرقة وشحناء بينكم ما هو الا صنيعة لنا دسسناء عليكم منذ زمن بعيد ليوم مثل هذا اليوم» .

٧ - المنهزمون يدعون بان هزيمتهم هي النصر « وانه ليفخر بحياده - ابن عمرو - وبفعال سيده ويقول ان ابن ساعر انقذ جيش المسلمين من ان يحاط به حين تسلل العدو الى المدينة فاستنقذه من الخطر ليوم عظيم يوم الكرة . ذور وبهتان كما ترى ولكن من يعي كذب ما يأتي به غيري وغيرك يا ابا وائل» .

٨ - ضمور الوعي عند الامة وخمولها الفكري ورخاؤها ولا مبالها « انك لا تدري ما بالقوم من عمى كان الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يعقلون» .

ليس هذا حلما خاصا بالمؤلف .. انما هو حلم يراه جل الافراد الذين يرتضون عن مهازل الحياة اليومية وعن الانحطاط الذي وصلت اليه هذه الحياة ، وهم من حين الى آخر ، عندما يتصورون هول الهزيمة ووقع صدمتها على نفوسهم ، يهيون مذعورين ليس من نومهم، انما من سباتهم الوجداني .. وينوحون في اعماق انفسهم .. وهم في الطريق مشاة ، وفي بيوتهم جالسين ، انما المؤلف يعلو على هؤلاء جميعا لانه اوتي مقدرة التعبير عن هذا الحلم ، ومقدرة تجسيده ونشره لكي ينتصب مرآة امام القلة المختارة التي اغتالت الهزيمة اعصابها . والتي لم تزل تعيش باعصاب ملتجة كالحمى .. لكي يذكر ما بالهزيمة كلما حاولت نسيانها او حاولت الفرار من واقعها المرير. ومن جهة اخرى يسوق امامها حشدا من المبررات لكي تشعر بالارتياح من حين الى اخر في محاولة لتتنصل من المسؤولية ومن مضاعفاتها الرضيعة .

وعندما يعي المؤلف من حلمه وينهي قراءة المخطوطة ، ويفتح عينيه في ضوء النهار يتساءل « ما الذي فعله النعمان ابو وائل بعد ذلك ؟ هل خطب يوم الجمعة فافرج ما في جعبته ونفسه . ام توانى فلم يفعل ؟ هل عاوده المرض فمات ، ام حبل بالقسر بينه وبين ما كان ينوي ؟ لسنا على ثقة من شيء من هذا ، وكل الذي نعرفه ان طيبة التي يذكرها مدون المخطوطة في ما دون قد ضاعت كما ضاعت القنطرة قبلها ، وكما ضاعت قبل غرناطة وقليلة وقريبة واشبيلية . اين تقع طيبة هذه ؟ ذلك لا يهمنا في شيء فقد يكون هناك في الاندلس ، مدن كثيرة باسم طيبة مثلما فيها مدن كثيرة باسم القنطرة ، وكلها ضاعت . نحن نعرف ان كل الاندلس ، من ايدي العرب ، قد ضاعت» .

ترى هل يتكرر هذا الضياع .. كما يتكرر الحلم المزعج في آلية عصاب الصدمة وهل يخضع هذا الضياع لآلية هذا العصاب !!

يفتخر العجيلي بان ابطاله دوما منتصرون ، اقوياء ، اثرياء، مناضلين ، يتناولون عشيقاتهم بدون ان يكابدوا الهجر ، يتفوقون على خصومهم بدون التعرض الى الصراع ، وهم عندما يموتون .. فانهم يموتون ابطالا ممثلين مشيعين من الحياة . وكنت اعجب لذلك ، كيف ينتثر الابطال في عالم الهزيمة !!

وفي هذه القصة لا يتمكن العجيلي من دفع بطله ابووائل

صددها هي حالة عامة سببت العصاب للعشرات والمئات من الواعين المدركين . وكل واحد من هؤلاء يدرك في قرارة نفسه ، بانه مسؤول مسؤولية مباشرة عن الهزيمة وعن عصابها الرضي ، وهو لا يقدر ان يتنكر بان العصاب الذي اصابه قد ساهم هو شخصيا في ايجاده .. ولاجل ان يهرب من هذه الحقيقة يقذف المبررات واحدا اثر اخر في محاولة يائسة للتتنصل من الهزيمة وابعاد المسؤولية عن نفسه في تعرضها للعصاب .

ان الجو العام الذي يسبق الهزيمة والذي صور بايجاز شديد، والدروع الواقية التي نصبت ، والمزيفة التي دمرت ، والمركة والانتصار الساق ، ونشوة الشعر والفخر .. ومن ثم الهزيمة الساحقة وسقوط القنطرة وتشرد اهلها وموت امير المضرة والنواح الذي جرت به الهزيمة .. كل ذلك يكشفه المؤلف في عدة صفحات من اصل ثلاثين . اما معظم الصفحات فيملؤها بالمبررات التي سببت الهزيمة . وهي مبررات تبرئ المؤلف والراوي والمهمل ابن سلام معا. الا ان التبرئة نفسها من خلال سياقها تحمل الادانة لهؤلاء جميعا ، باعتبارهم مسؤولين او مشاركين في المسؤولية التي قادت السى الانكسار والعصاب .

تتلخص هذه المبررات بما يلي :

١ - ان المضرة لم يهزموا انما خدعوا « واذا برسول من الامير - ابن ساعر - يدخل القسطنطين يحمل منه دعوة الى ابن مرداد الى الجلاء عن السهل والحق بهضاب رندة لان العدو اصبح في القنطرة او كاد فهممنا والله بالفلك بالزنجالي حامل الرسالة لاننا حسبناه خديعة دست الينا من قبل توذر . يريدونكم على ان تخلوا السهل لتتدفق فيه عساكر الاسبان فتؤخذ مدينتكم ومن ورائها ارض الجزيرة لقمة سائفة» .

٢ - ان المهمل قد خاض معركة يائسة بعد ان كشف الخديعة وانه قدف بنفسه في اعماق المعركة بقاية الانتحار فيهتف « ليس في الحياة خير بعد ان ياخذ القنطرة هؤلاء العلوج» ويسقط صريعا بعد سقوط القنطرة .

٣ - هنالك فئة من الاندلسيين قد انضمت الى الاسبان وحاربت الى جانبهم وهذه ظاهرة معروفة في التاريخ الاندلسي « فلا بد من انه كان خديعة وان تقع في الكمين الذي دبره ابن ساعر باشارة توذر او توذر باشارة ابن ساعر . لا والله ما تخاذلنا ولا ذعنا ولا اعطينا بايدينا ولكنهم اتخنونا بنبل حديد قبل ان نتناولهم بالعرايب والسيوف ولقد رأيت بين من قاتلونا عمائم صفرا كثيرة لاهل زنجاله الجبل لم تنفع في اخفائها فلباس من معدن صلب مرشحة كانوا يعتنقون بها مثل قوم توذر فقتلوا منا وقتلنا منهم خلفا كثيرا ، وسمعته يصيح اذن فعلتموها بعتم البلد لتوذر» .

٤ - كان هناك اتفاق مبطن بين ابن ساعر وتوذر « صالحهم على ان يبقى اميرا ويطمع سيدك ان يظل اميرا ابشره بالبوار والفقر والقتل وابشر ابن ساعر بان ملكه قصير العمر يحسب انه باجلاله المضرة عن بلادها تصلح له ولزنجاله الارض فيملكونها حين عجز عن حفظها مغاوير العرب ان هو الا مطية ذليلة استعملها الاسبان . وتوقعنا ان يطبق علينا ابن عمرو وجنده من جانب ويطبق علينا الاسبان من الجانب الاخر فلا يخرج منا حي» .

٥ - هنالك فئة شبه غريبة هادنت الاسبان « مستعينين بوهن النفوس عن الجلال والجهاد وبخيانات الدخلاء وكل من له اس في

لفتة في ذاك الزمان غير مضادة

وفم رطب ... »

ان الصحراء مجرحة ،
حين رأيت الريح ،
ترش عليها الصخر ..
الفتية ..
كنت الطفل القاتم ، يعلق جرح ،
في ذاكرتي ...
« وله نغش أخضر ،
واسم ينضح ماء ،
ولدي مخاوف منتفضه ،
منها ما يذهب للنوم ،
ومنها ما يمكث في اليقظه .. »

لم يفجأني الزمن الجارح ،
لثعابين البر مخابيء تحت الماء ،
ولها الصخر الساهر فوق الوجه ،
الصخر الساهر تحت القلب ،
« .. كان الماء ،
يشحب في ذاكرة الصيادين ،
يؤالف بين السمك الميت والصحراء .. »

علي جعفر العلق

بغداد

من يصمد ما بين البغض ،

وبين العشق الجارح يهلك فيه اثنين ،
وهذا الزمن الفظ ، تشرخ فيه الوجه .

وصارت فيه العين ،

مصباحا للسهر الضائع ،

كان النهر ،

يؤالف بين الرمل وبين الصبية ،

يترك في رأسي ..

أعطية ..

وهوى ..

وبضائع للموتى ..

كان البرد ،

يحمل أمطارا موحشة ،

يجلس بين العظم وبين الجلد ..

للصبية أيام مثل الفضة ،

وعصافير بلون السقف ،

وخوف أبيض قبل العيد ،

كني أهبيء ..

للشيخوخة : جسدا مائيا ،

للبرد الشاحب : وجها ،

« .. لابي رائحة الفرسان المهمومين ،

وله حزام أخضر ،

تجسد في الخارج ، وعلى هذا فالعالم القصصي هو غير العالم الواقعي . ان القاص يعيش دوما في عالين ، ربما يتقاربان - في بعض الاحيان - حتى المساس ، الا انهما يقيان كالخطين المتوازيين مهما امتدا لا يتلاقيان .. ان القاص يتنقل من عالم الى اخر .. بدون ان يعيشهما معا ، عالم القصة باحداه وابطاله ، وعالم حياته اليومية النافذة او العظيمة .. وهو لا يملك سوى هذين العالين . سواء كان قاصا واقعيا حادا او رومانسيا حائلا او فنانا مؤرخا .

الا ان العجيلي ، كاديب موهوب تسود ان يخرق العادي والمألوف ... قد اوجد بقصته هذه ثلاثة عوالم بان واحد عالم الانهيار الاندلسي بما يقارب الحقائق التاريخية ، وعالم الهزيمة على الجبهات .. ثم عالمه الذاتي الخاص التام من خلال واقعه اليومي .

ان نجاح المؤلف في تصوير البيئة الاندلسية المنهارة من خلال التصاق تصوره بالارض الاندلسية المحبوبة حتى الوعي الجارف .. جعله يصدق ما خبط يدها ووجد نفسه ذائبا في الجو الاندلسي الشجي والاسبان فقد سمعت بانه عندما القى قصته هذه لأول مرة ، وكانت طازجة قريبة المهذب بوجدانه وتصوره حمل معه خارطة كبيرة لاسبانيا .. حتى اذا اعتلى المنصة قردها امامه واخذ يمرر سبائته عليها ، مشيرا لمستعميه الى المكان الذي تقع فيه هذه المدينة .. مدينة القنطرة .

أنور قصيباتي

النعمان الى النصر . لانه يعيش جو الهزيمة ، وكل ما حوله ينبيء بها . فكيف يمكنه ان يتخلص من التناقض الصارخ اذ هو رسم بطله الاثير في « فارس مدينة القنطرة » كما يرسم سائر ابطاله . ربما لأول مرة يدرك كاتبنا ما هو معنى الهزيمة .. ومع ذلك ظلت في وجدانه بقية من اصراره القديم فلم يتخل عن بطله ويدعه يسقط شهيدا في ساحة القتال . انما ترك امره غامضا يتردد بين عدة امكانات . كدليل على واقعا البهول ومستقبلنا الصباي المقنوف والمطاح بين عشرات من الامتحانات قد اختلطت ببعضها حتى لكأنها غدت كرة لزجة من ضربة بالية .

لقد وقعت في الوهم كما وقع غيري ، وصدقت للوهلة الاولى بان القصة هي حقا مخطوطة اندلسية ، وعانيت الكثير لكي اعرف مصدر ابيات الشعر . . انها ليست من الجو الاندلسي على الاطلاق . فيها جذالة وفحولة الا ان اصطناعا ما يتبدى من خلالها .. وليس من شك في انها من نظم المؤلف نفسه ان الذي اجري هذه القصة باعتبارها مخطوطة قديمة ليس من الصعب عليه - وهو شاعر له ديوان - ان ياتي ببضعة ابيات يقلد فيها الاسلوب الشمري القديم ، كما قلد الاسلوب النثري القديم .

ان القصة في الاصل ، عالم قائم بذاته ، لا علاقة له بالواقع ، حتى ولو كانت القصة واقعية حتى الالتحام والارتباط . فهي شحنة نفسية مكثفة لا بد لها عندما تحز وتنضج في اعماق الذات من ان